

نفحات القرآن

[92] الخلق الثابت والراسخ الآية الأولى التي تصرّح بأنّ (الدين) أمر فطري وتخطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : (فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا) (1). ومن أجل التعليل أو التشجيع على هذا الأمر تقول الآية بعد ذلك : (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (2). وبما أنّ من المسلّمات وجود الإنسجام بين (التشريع) و (التكوين) حيث لا يمكن وجود أمر متأصل في خلق الإنسان غير منسجم مع سلوكه يمكن أن يكون هذا التعبير دليلاً على وجوب العمل بأصل التوحيد ونفي كلّ شرك . وللمزيد من التأكيد تقول الآية بعد ذلك : (لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) . وهذا يعني أنّ ما يتجدّر في أعماق الوجود الإنساني يستمرّ كأصل ثابت وراسخ - وكما سيتوضّح لنا في الإيضاحات - فإنّ هذه الجملة لها معنى غزير وأعجازي حيث تشير الدراسات الحديثة التي يجريها المفكّرون إلى أنّ العلاقات الدينية في التاريخ هي من أشدّ العلاقات الإنسانية تجذّراً وتستبقى راسخة . بيد أنّ فئة جاهلة وغافلة تقوم بإفساد هذه الفطرة الطاهرة بالشرك ، ولذا يؤكّد القرآن على المحافظة عليها بذكر كلمة (حنيفاً) (3). وللمزيد من التأكيد تضيف الآية (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) . كلمة (قيّم) من (قيام) وإستقامة بمعنى الثابت والراسخ والمستقيم كما _____ 1 - (حنيف) من (حنف) ويعني كلّ ميل أو انحراف وجاء بمعنى الميل من الضلال إلى الصدق ، ومن الباطل إلى الحقّ والتعبير بـ (وجه) هنا كناية عن الذات ، لأنّ الوجه أهمّ عضو في الجسم وتقع فيه الحواس الهامّة كحاسة البصر والسمع والذوق والشمّ . 2 - توجد أقوال كثيرة حول تعليل النصب في (فطرة الله) ومنها أنّها بتقدير (اتّبع) و (الزم) . 3 - يقول بعض المفسّرين بأنّ (لا) في (لا تبدل لخلق الله) نافية وتعطي معنى النهي (مجمع البيان والميزان وتفسير أبي الفتوح الرازي) ولكن كما قلنا فإنّ النفي أنسب وأجمل (فتأمّل جيّداً) .